الشيخ حسن

بقلم الدكتور احمد زكي الوشاحي

في العقد الأخير من القرن الماضي تألق في سماء الأدب العربي نجم أديب حرّ جمع بين الثقافتين العربية والفرنسية بصورة فذة ، ولم يقف تضلعه اللغوي حجر عثرة في سبيل تحرره الفني نثراً ونظماً ، فجاء بالمدهش الخلاب من الأساليب البيانية والمعاني الشعرية لمقدري الأدب العالي ، وقد كانوا قلة ضئيلة في ذلك العهد ، فكان له فضل الرائد المؤمن والنبي الملهم وسط الجاحدين العديدين الكافرين برسالته . ذلك كان الشاعر خليل مطران الذي أثر تأثيراً بليغاً بأدبه العالي الأصيل الخالد على كر الأعوام ، حتى فيمن درسوا الآداب الفرنسية والانجليزية والعربية في أمهاتها ، فكان له فضل عظيم على الجيل الناشيء ، وكان — غير مدافع — شاعر العربية الابتداعي الأول إن لم نقل ناثرها المجدد المترسل أيضاً . ومما زاد من قيمته روحه الانسانية إطلاعه على الآداب العالمية عن طريق اللغة الفرنسية ، فعني بين ما عني به لترجمة شيكسبير ، لا باعتباره شاعر الانجليز بل لأنه عدّه من أعظم رسل الانسانية الفنانين . وكانت لمطران أسالة درامية بديعة أهلته فيما بعد لأن يكون مدير الأوبرا المصرية ، وأهلته من قبل لأن يتفنن في أوصافه الشعرية الدرامية كما صنع في ملحمته الخالدة (نيرون) ، وكانت كافية لأن تزجيه الى وضع الدرامات الشعرية ، ولكنه كان رجلاً حكيماً يبغض النزاع ، فاكتفى بتشجيع شوقي لينهج هذا النهج ، وقنع بدور الناقد الدرامي بدل المؤلف المنافس في وقت كانت لكبار الشعراء والأدباء « مناطق نفوذ » أشبه ما تكون بمناطق النفوذ السياسية للدول الكبرى ، لا يسمح لأحد من أقرانه بله الأدباء الناشئين بالدنو منها ، اللهم إلا بأذن كاليل المجيد فحسب ! وهذا من الأسباب التي دفعت بالمازني الى الابتعاد عن نظم الشعر اكراماً لأخدانه ! ذلك كان شأن مطران وأدبه ، الذي لا يمكن معرفة قيمته إلا بالدرس المقارن لزمنه ولما قبله وبعده . ولهذا عد مؤرخو الأدب المستقرئون شعره الأول خير

الرومانسية أي الابتداعية في الأدب العربي الحديث ، والشواهد على ذلك أكثر من أن تعد

وبعد مرور ستين عاماً أو تزيد ، حين نجد النماذج الرومانسية المتعددة في الشعر العربي المعاصر ، قد يجازف بعض الناشئين الذين لم يشهدوا تطور الشعر الجديد في لفتنا في هذا المعرض أو ذاك في تكرار هذا الفضل وإن يكن ساطعاً لكل بصير نزيه .

وعلى أساس المقارنة نمتحن هذه النماذج الرومانسية الكثيرة التي يتحفنا بها الجيل الحاضر من أقطار شتى ، فنجد أغلبها مجرد تقليد لنماذج سابقة في صور مختلفة ، حتى ليلتبس على بعض النقاد السطحيين أو الناشئين التمييز ما بين الروائع التجديدية الأصيلة والنماذج المقلدة لها ، بل لقد ينسبهم يرجح الأخيرة فضل الأولى الصادرة عن طبع لا صنعة ، وأن تقدمت الرومانسية في الشعر الغربي الحديث وتعددت نماذجها ، فليس من السهل أن نظفر بنماذج جديدة أصيلة ، بل لعل بعض الشعراء الرومانسيين — ونحن في عدادهم — قد سئم معركها إزاء البطولية المتنفسة والتقليدية المشوهة ، فلجأ إلى السريالية والرمزية وإلى الحكمة الأولمبية فراراً من ذلك الابتذال الشائع .

ومع ذلك فثمة قلة ضئيلة من الشعراء المجددين تستعصي ولاءها للرومانسية كلياً أو غالباً . ومن بين هؤلاء النابغين شاعر الشباب المهجري سعيد جبران ، وإن يكن صاحب القضيلة الشعرية الرمزية (الحارة) . ومن نماذج شعره الابتداعي الجميل قصيدته الفائقة (الشيخ حسن) التي تفيض منها الألحان العذبة حاملة الأخيلة والصور الطريفة في تضاعيفها ، وليست بينها واحدة تشعرك بالثقل والتقليد . وما هو (الشيخ حسن) ؟

قرب بلدة كفرون في جبال العلويين في شمالي سوريا يقع مزار ولي الله الشيخ حسن ، وترتفع قبته الناصعة البياض وسط الوادي الظليل بين أشجار البقم والسنديان ، ويتجسس بين الصخور على أقدامه (نبع الشيخ حسن) الشهير بمائه العذب الغزير ، وقد لقب النبع باسم الولي وأصبح النبع والمزار مترادفين ونشأ شاعرنا في جوار (الشيخ حسن) وألفه على مرّ الفصول ، فتعلق به وأحبه حبه لبقية مفاتن ذلك الوادي الساحر ، فألهمه منذ سنين هذا الشعر الغربي البديع : —

يا حبيبي أفجر الصبح الجنانا وانثنى يبعث عنا فرآنا
ووشى النبع بأسرار لقانا للشحارير فغنت بهوانا !

أين تمضي ؟

هو ذا « الشيخ » ينادينا إليه جاعلاً من بردتيه — رضي الله عليه —
ملجأ كالقدس ستراً وأمانا يزرع الكتمان في ظل خطانا !

سَحَرَ النبعَ فلم يبرحْ له ... عاشقاً ، إن هتف الداعي تنانى
يملأ الآفاق أنفاس هوى ... ويندي الروض شجواً وحنانا
وأراد الدوح ندمان له ... فاستحال الدوح ندمان وعانا
قال للحسن ، وفي لهجته ... رنة الواثق : كنْ إلفي فكانا !

قد عرفناه وفي جبهته ... من ليالي البرد سقمٌ وشحوبْ
وعلى مفرق ندمان الهوى ... من عوادي الريح آثارُ المهيبْ
وبأصداء حداء النبع من ... يقظة الآلام في القلب الكئيب
نمشقنا منه رغمَ الحزن ما ... يتعلى نبره من صمت رهيبْ !

وعرفناه وفي أنفاسه ... من عبير الزهر أنفاس الطيوبْ
ولأعطاف الندامى هزةٌ ... تنضحُ العطر من الثوب القشيبْ
والصبايا يتسابقنَ إلى ... الصخرة الخضراء صبحاً وغروبْ
فسقنا منهُ ألوانَ صبى ... تبعث اليقظة في صم القلوبْ

وسكرنا معهُ والصيفُ على ... عاتق العنقود أنفاسٌ تذوبْ
وندامايَ ندامايَ ، والهوى ... يملأ الأردانَ عطراً والجيوبْ
والندى الحالمُ في سكرته ... يرجعُ القبلةَ للغصن الرطيبْ

فبكى النبعُ غراماً وانثنى الليلُ ونامَا
فافترشنا ساعدينا ، وهززنا شفتينا ، وبعثنا قبلتينا
فضحكَ الصبحُ وقامَا يقرئ (الشيخَ) السلامَا
وبأعطاف الندامى نمّ مرّ وعَامَا
يتحدى ضفتينا ، ويُندي وجنتينا ، باعثاً بالعطر منّا وإلينا !

قُمْ حبيبي ولنارعْ بخطانَا
فضحَ الصبحُ هوانَا !

أرأيت هذا التحرر في الخيال والموسيقى مع مجانبة الاخلال بالذوق العربي ؟ ومثل هذا التنويع الجميل مشهود حتى في الجزء الأول من (ديوان الخليل) وحتى في نهضته « مولود » ، ولكن لا يستطيع منصف أن يقول ، إن في هذا الشعر تقليداً لأحد لأنه شعر مطبوع ، وإن يكن في موضوع كاد يتلفه المقلدون ، ومن ثمة كانت هذه القصيدة الرشيقة وصاحبها جديرين بالتحية والتأمل الدراسي .